ويتحدث عن الكلام فيقول:

«إن الإنسان له كلام بمعنى التكلم الذى هو مصدره وكلام بمعنى المتكلم به الذى هو الحاصل بالمصدر، ولفظ الكلام موضوع لغة للثانى قليلاً كان أو كثيراً حقيقة كان أو حكمًا، وقد يستعمل استعمال المصدر كما ذكره الرضى وكل من المعنيين إما لفظى أو نفسى، فالأول من اللفظى فعل الإنسان باللسان وما يساعده من المخارج، والثانى منه كيفية فى الصوت المحسوس، والأولى من النفسى فعل قلب الإنسان ونفسه الذى لم يبرز إلى الجوارح، والثانى كيفية فى النفس إذ لا صوت محسوسًا عادة فيها، وإنما هو صدى معنوى مخيَّل.

أما الكلام اللفظى بمعنييه فمحل وفاق، وأما النفسى فمعناه الأول تكلم الإنسان بكلمات ذهنية وألفاظ مخيلة، يرتبها فى الذهن على وجه إذا تلفظ بها بصوت محسوس كانت عين كلماته اللفظية، ومعناه الثانى هو هذه الكلمات الذهنية والألفاظ المخيلة المرتبة ترتيبًا ذهنيًا منطبقًا عليه الترتيب الخارجى.

والدليل على أن للنفس كلامًا بمعنيين: الكتاب والسنة، مثل: ﴿أسرَها يوسف فى نفسه﴾، لما يدل على أن للنفس كلامًا بالمعنى المصدرى وقولاً بالمعنى الحاصل بالمصدر، وذلك من أسر، وسمى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما قاله رجل: «إنى أحدث نفسى بالشىء لو تكلمت به لأحبطت أجرى» فسمى كلاما مع أنه محدث به نفسه مع أنه كلمات ذهنية.

وهو يعرض ذلك مقدمة لبحث قضية خلق القرآن التى أثيرت فى الفكر العربى القديم.

وينتقل إلى قضايا عديدة بهذا المنهج الذى مثلنا له بما تقدم، من تلك القضايا:

بيان الأحرف السبعة، التى نزل بها القرآن الكريم، وجمع القرآن وترتيبه، ووجه إعجاز القرآن.

ثم ينتقل بعد هذه القضايا إلى التفسير، فيفسر سورة الفاتحة، ثم ينتقل إلى سورة البقرة، وفى سورة البقرة يقف أمام قضاياها ووجوهها مفصلاً قصة موسى ـ عليه السلام ـ مع بنى إسرائيل ومع فرعون، والحديث عن أهل الكتاب ومواقفهم من يهود ونصارى، وقصة ابتلاء إبراهيم بكلمات.